

الباب الأول

مقدمات

الفصل الأول

البلاغة بين العلوم الأدبية

ليس من غرضنا في هذه الصفحات أن نعرض للقول في أصل اللغة العربية ونشأتها ، وبيان الأطوار الأولية التي تمثرت فيها حتى استقامت ، وصارت صالحة للتفاهم بين أفراد الأمة العربية ، أو قبائلها المختلفة ، تفاهما شفويا أو كتابيا . كذلك ليس من شأننا هنا أن نبحث فيما طرأ على هذه اللغة الفصحى بعد الاسلام من العوامل التي شوهت فصاحتها ، وأدت سلامتها في أكثر الألسنة حتى شاع فيها اللحن ، وانحط الأسلوب ، وأصبحنا بذلك نرى لغتين : إحداهما لغة فصيحة ممتازة يقصد إليها الخاصة حين يتناولون الشؤون الهامة : خطابة أو حواراً أو مراسلة أو تأليفاً . والثانية لغة عامية ، هي لغة السواد الأعظم من هذه الشعوب المستعربة ، ولغة الخاصة حين يرجعون إلى الحياة الاجتماعية العادية بين الناس . أقول : إن ذلك وغيره من أبحاث فقه اللغة وتاريخها . وحسبنا هنا أن نقف حيث نعيش ، وعند نهاية هذه الأطوار لننظر في هاتين اللغتين ، وماذا عسى أن يصل -- أو يفصل -- بينهما وبين الأدب الرسمي ، هذا لدى ندرسه في مراجعه المقررة ، ونحمل الطلاب على تأثره أو

الانتفاع به ، وتزودهم بالوسائل العلمية التي تعينهم على فهمه وتذوقه ، وعلى الانشاء الأدبي الصحيح .

اللغة العامية هي لغة الحياة العامة ، والتعاون الاجتماعي اللازم لسير الحياة السريعة ونظامها المطرد الشامل : وذلك لسهولة وشيوعها ، ولأنها القدر المشترك بين جميع الطبقات ، فالكـل يعرفها ويلجأ إليها في حرية ويسر . ولما كانت لغة الشعب ومن صـنعه فقد أخضعها لحرية ، وأزال عنها القيود العلمية والاصطلاحية وأعانها على أداء مهمتها كما تتطلب الحياة الجارية ، فصارت لغة مرنة طيعة قابلة للتطور السريع ، لا تنفر من لفظ دخيل ، أو تركيب غريب ، وإنما تقبله وتشربه روحها فيصقله الاستعمال ويصبح مألوفاً مقبولاً . ومن الطبيعي ، إذاً ، أن تختلف هذه اللغات العامية العربية باختلاف الأقطار والأقاليم وذلك لنفس الأسباب التي اختلفت من أجلها اللغات القديمة حين انفصلت من أصولها الأولى . فأهل مصر لهم عاميتهم ، وأهل العراق لهم عاميتهم ، وكذلك المغاربة . كما أن لأهل الصعيد لغتهم العامية التي تختلف لغة سكان الدلتا ، الذين يختلفون هم أيضاً في عاميتهم باختلاف الأقاليم . ومعنى هذا أن العامية توشك أن تكون هي اللغة القومية لكل قطر من أقطار الشرق العربي ، تتأثر بجوه ، وطبيعته ، ومزاج أهله ، وثقافتهم وأخلاقهم ، وتعود بذلك سجل حياتهم الصادق وأقدر على تشرب روحهم وتصوير أفكارهم ونزعاتهم ، حين عجزت الفصحى أو عجزوا هم عن أن يلبسوها من شخصيتهم وبأً قومياً طريفاً ممتازاً . لذلك نشأت هذه الدراسات الحديثة التي تعنى بالعامية فتقيد

ألفاظها ، ونحوها ، ولهجاتها ، وآدابها نظماً وشرأ ، إما لأنها طور
من أطوار التاريخ اللغوي والأدبي والاجتماعي ، وإما لأنها قد تكون
أساساً لهذه اللغات الاقليمية التي قد ينتفع بها فيما بعد كما يرى
بعض المفكرين .

ومع ذلك فلا تمد العامية لغة رسمية ولا يعد أدبها أدباً رسمياً
يدرس على أنه مثال مقرر يحتذى المتعلمون ، وذلك لسببين اثنين : —
أحدهما : شيوع الخطأ اللفظي والخروج على قوانين النحو
والنصريف وعدم التخرج في قبول كل دخيل أو أعجمي من الألفاظ
والتراكيب ، حتى هجر فيها النحو العربي ، وخضعت المبارات لصور
أجنبية في تأليف الجمل ، وتكوين الأساليب .

ثانيهما : ما غلب على معانيها من التفاهة والعرف ، فأغلبها أوامر
ونواه وأخبار عادية تتصل بالحياة الجارية ، وتتكرر كل وقت . وكل
يوم مما لا يستحق درساً أو تقييداً . والأدب يجب أن يجمع بين أمرين
(١) صحة اللفظ (٢) قيمة المعنى أو سموه ، حتى يستحق أن يسمع
أو يقرأ في كتاب .

وليس معنى هذا خلو العامية من الألفاظ الصحيحة أو المعاني
القيمة ، كلا ، فاللغة العامية هي الفصحى طرأت عليها أخطاء ، ودخلت
عليها تراكيب ، لم تستطع أن تمحو صوابها كله ، كذلك نجد فيها
فنوناً أدبية من النثر والنظم — كالجدل والحكم ، والأمثال ، والأغاني
والمواويل والأزجال — تجعلها معرضاً لكثير من المعاني والموضوعات
الأدبية القيمة ، ولكنها من الأدب الشعبي على أية حال .

أما اللغة الفصحى ، التي لم تشوه بهذه الأخطاء اللفظية ، فهي لغة الأدب الرسمي ، يعتمد عليها الكتاب حين يريدون التعبير عن الأفكار أو تصوير الشعور ، أو تأليف المسائل والآراء العلمية إذ كانت الفن الكلامي الذي يؤدي ما في النفوس من ثمرات العقول ونوازع الانفعال والميول. فإذا حاولنا النظر بمثال للأدب بحثنا عنه في المؤلفات المدونة باللغة الصحيحة ، مهما يكن نوع هذا الأدب خاصاً أو عاماً ، وليكن قول المتنبي :—

من الحلم أن تستعمل الجمل دونه إذا اتسعت في الحلم طرق المظالم
وأن ترد الماء الذي شطره دم فتسقى إذا لم يسق من لم يراحم
ومن عرف الأيام مرفق بها وبالناس روي رحمه غير راحم
فلا هو مرحوم إذا ظفروا به ولا في الردي الجاري عليهم بآثم
فأول ما يلقانا من هذا المثال — عاطفة — أو انفعال السخط والعدوان الذي سيطر على نفس الشاعر فأنطقه بهذه الأبيات القوية الثائرة التي حشد فيها الظلم والدم وأنكر الانصاف والترحام . وهذه العاطفة نفسها فحسنتها فكرة هي لها كالبرهان المنطقي ، فالجمل حتم إذا لم ينفع الحلم ، والجهاد الآخر واجب إذا لم يكن منه بد لتحقيق الرغبات ، فالحق للقوة ، والناس لا يؤمنون إلا بالرهبة ، والويل للضعيف إذا هان . وهنا قد ظفّرنا بعنصرين من عناصر الأدب : العاطفة ^(١) Emotion والفكرة ^(٢) Thought وبعد هذا نلاحظ أن هذه العاطفة القوية احتاجت في تصويرها هنا إلى عناصر وفنون يانية من التشبيه ، والاستعارة ، والكناية ،

١ — راجع صحيفة دار العلوم عدد ٣ من السنة الثالثة للمؤلف

٢ — نفس المرجع عدد يوليو سنة ١٩٣٨

وذلك لعجز اللغة العادية عن تصوير القوة الانفعالية في نفس الشاعرة فاحتال
وكون من هذه العناصر الحرية لغة فنية هي كفاء ما في نفسه من شعور .
فهذه الصور تؤلف عنصراً ثالثاً هو الخيال Imagination ^(١) وهو لازم
في كثير من الأحيان للتعبير عن العاطفة .

وأخيراً نجد العبارة اللفظية التي قد تسمى الأسلوب Style . وهي
الوسيلة اللازمة لنقل أو إظهار ما في نفس الأديب من تلك العناصر المعنوية
فصار الأدب ينحل إلى هذه العناصر الرئيسية الأربعة . وهذا التحليل
نفسه يتوافر في النثر كما توافر في النظم على اختلاف في الدرجة تبعاً
لاختلاف طبيعة الفنون فيهما . ومن هنا نستطيع أن نعرف الأدب بأنه
الكلام الذي يعبر عن العقل والعاطفة .

أفتظن أن الناس حين يسمون هذا النص الأدبي أو غيره ، يحبون
به جميعاً ؟ وإذا كان ذلك فهل يحبون بدرجة واحدة أولاً ، ولأسباب
واحدة ثانياً ؟

العلماء والكتاب كثيرون . وآثارهم الأدبية صور لشخصياتهم
المتباينة . فلا بد أن تمايز هذه الآثار تبعاً لاختلاف الأمزجة والأذواق
ومثل ذلك يقال في القراء والسماعين . فهم مختلفو المواهب . والأمزجة
والأذواق . وكل منهم يعجبه من النصوص الأدبية ما يلائم ذوقه . وبقدر
المشابهة بين المنشئ والقارئ يكون اطمئنان الثاني إلى الأول وشغفه بأدبه
وحسن تقديره لأنه صورة نفسه ومزاجه . وكلما تنافرت الأذواق كان
الانصراف وسوء الحكم والتقدير . ومن هنا نشأ النقد الأدبي في طوره الأول ،

(١) نفس المرجع السنة الرابعة عدد ٣

(٢) نفس المرجع . السنة الثانية . العدد الثالث

فأول ناقد وجد عقب أول منشاء . والنقد يقوم على الفهم وصحة التقدير . ويمكن تعريفه بأنه بيان قيمة النص الأدبي ودرجته الفنية ^(١) فإذا أخذنا قول المتنبي السالف موضعاً للنقد ، فقد نحكم له بوضوح الأسلوب وقوته وجماله . وبطرافة الأفكار وصحتها . وبحسن التصوير الخيالي وملاءمته وبصدق العاطفة وقوتها . ثم نذهب في تعليل ذلك مذهباً واحداً أو مذاهب شتى تبعاً لأذواقنا . ومعارفنا وتجاربنا . وقد يأخذ عليه غيرنا هذا العنف الصارم . وسوء الظن بالناس وبالحياة حتى أقر الظلم والعدوان وكانت عاطفته أليمة غير سامية . ويقول في ذلك ما يشاء حسبما توحى إليه أخلاقه ومعارفه . فالأدب سابق والنقد لاحق . والأدب فن إنشائي إيجابي ينتج هذه القطع الممتازة التي نظفر منها بصدق الشعور . وحسن التفكير والتعبير . ولكن النقد فن وصفي سلبي . يقوم بمحاسبة الأديب المنشئ . وكثيراً ما يستحيل فناً نافعا يرشد الأدباء كما تقوم بذلك البلاغة . وقد زها النقد الأدبي منذ العصر الجاهلي ، وتواردت عليه فيما بعد ~~جهد~~ العناية واللغوين والأدباء ^(٢) . وألفت فيه كتب شتى تجمع مسائله مختلطة بغيرها من مسائل النحو والبلاغة والسير والأنساب . وكان الذوق هو الحكم الأول في ناحيته الفنية ، وإن حاول بعض المحدثين أن يضعوا له قوانين عامة تشبه القوانين العلمية .

ولقد كان النقد الأدبي من أهم العوامل في إيجاد علم البلاغة وذلك أن هذه الملاحظات والأحكام النقدية أفادت جماعة من العلماء .

(١) — راجع أصول النقد الأدبي للاستاذ Winchester

(٢) — تاريخ النقد الأدبي عند العرب للاستاذ طه ابراهيم

فأحالوها قوانين وأصولاً . ودونوها في فصول مختلطة بالنقد حيناً ومنفصلة
أخيراً . حتى كانت أساساً صالحاً لتكوين قواعد بلاغية قامت بوظيفتها
فيما مضى . وهي الآن آخذة في الاكتمال لعلها تنهض بالواجب عليها منذ
الآن . ومن يقرأ المؤلفين في هذا الباب من عهد الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥
هجريه . وابن المعتز ٢٩٦ هـ . وقدامة ٣١٠ هـ . والمسكري ٣٥٩ هـ
وعبد القاهر الجرجاني ٤٧١ هـ . والشعالبي ٤٢٩ هـ . وابن رشيق ٤٦٣ هـ . إلى
الزمخشري ٥٣٨ هـ والسكاكي ٦٢٦ هـ يترأى له ما قلنا من أن النقد كان
عاملاً هاما في هذا التقنين البياني . وأن هذين العلمين — أو الفنين —
قد عاشا مختلطين لم ينفصلا إلا بعد جهد عنيف . وهذا الاختلاط بين
مسائلهما طبعى مادام موضوعهما واحداً هو النصوص الادبية من حيث
توافر الجمال والتأثير . (فالبلاغة ترشدنا بقواعدها إلى الطرق والوسائل التي
تجعل كلامنا نافعا مؤثرا) . والنقد يضع لنا المقاييس العامة التي نقدر بها ما في
الكلام من فائدة أو قوة أو جمال) ومع ذلك فيمكن الفرق بينهما من وجهين (١)
الأول أن البلاغة أقرب إلى الناحية الفنية الإيجابية . ما دامت
قواعدها ترشدنا إلى الانشاء الصحيح . وإلى الطرق المختلفة لتأليف الكلام
المتمايز بالافادة وقوة التأثير . وإلى نوع الفن الادبي الذي يكون أوفق من
سواه لمقتضى الحال . وأما النقد فانه يفرض أن الكلام قد تم لإنشاؤه .
وانتهى منه صاحبه . ثم يعرض علينا مقاييسه العامة التي تقيس بها الكلام
ليبان قيمته الفنية والحكم له أو عليه فهو متأخر الوظيفة . يعنى كما قلنا .
بحاسبة الأديب بعد أن ترشده البلاغة الى حسن التعبير .

الثانى : ان البلاغة تعنى أكثر ما تنى بالاسلوب . فهى كذلك تقرر ان الكاتب لديه ما يود أن يقوله أو يكتبه من المعانى والافكار أيا كانت قيمتها أو درجتها ، من السمو أو الضعة ، ثم ترسم له خطة الأداء قولاً أو كتابة . ولكن النقد يتناول الاثنين : المعانى والأساليب فيسأل عن صحة المعانى وقيمتها . ومقدار آثارها فى القراء أو السامعين . ثم يتبين فى الأسلوب — ولكن من ناحية عامة — مقدار ما فيه من الوضوح والقوة . والجمال . ومن هذه الخواص الفنية التى يدركها الذوق المهذب وقد تعجز القواعد البلاغية عن تعليلها أو الخوض فيها . وهنا نلاحظ أن دائرة النقد أوسع . وان كانت قوانين البلاغة أوضح وأدق من مقاييس النقد الأدبى كما يمر بك بعد حين .

هذا الأدب الذى أشرنا إليه كثيراً ما يتجاوز الباحثون نقده إلى معارف ومحاولات عدة تزيد جوانبه إيضاحاً وتعلل كثيراً من مظاهره الأخرى فتجدهم مثلاً يفتقون عند الأدب الجاهلى . ويدرسون فنونه المختلفة ويحللون نصوصه إلى عناصرها . ويلاحظون على هذه الفنون والعناصر ملاحظات تتصل بسذاجتها . أو قوتها . أو شدة اتصالها بالبادية أو بالحياة الصحراوية الفقيرة المضطربة . ثم يستخلصون من ذلك البحث الشامل العميق أحكاماً عامة تدون فى فصول منسقة ، هى تاريخ الأدب الجاهلى . ومثل ذلك يقال فى العصر الأموى والعباسى والعصر الحديث . ترى لكل عصر خواصه الأدبية . والمؤثرات المختلفة — العلمية . والفنية . والاقتصادية . والسياسية والدينية . والشخصية — التى أكتسبت الأدب هذه الخواص فامتاز بها عن سواه وصار عصرًا أدبياً مستقلاً عن سائر

العصور . نتائج هذه الابحاث هي تاريخ الأدب الذى يمكن تعريفه بأنه بيان الشخصيات الادبية لكل عصر مع شرح أسبابها) ومن هنا نعرف أن تاريخ الأدب ليس قصصا وانسابا ونوادير . وإنما هو نقد وتحليل وتعليل . شأنه شأن التاريخ الطبعى حين يتناول الكائنات بالتحليل والتفسير والموازنة والاستنباط ليصل من ذلك إلى أحكام عامه تكون له التاريخ . وكذلك الشأن فى التاريخ السياسى والاجتماعى والاقتصادى . كله نقد وتنسيق لا قصص وأساطير^(١) أو على هذا الأساس قام الخلاف حول التاريخ : أعلم هو أم أدب ؟ فمن نظر إلى المسائل الواقعية التى يتناولها ويدرسها رأى فيه علما له حقائقه ونتائج . ومن نظر إلى تدخل الشخصية ووجهة النظر فى تصور الحوادث وتصويرها قرر أنها أدب . والحق أنها أدب بالمعنى العام أو علم بالمعنى العام فقيه من كل شيء يفقه هذا الموقف الوسيط . ومما تقدم نستطيع استخلاص النتائج الآتية : —

الأولى : أن الأدب فن خالص . وهو من الفنون الجميلة التى تعتمد على الجمال فى التعبير عن عواطف الانسان وأفكاره أو عن شخصيته الفنية ولكن تاريخ الأدب يجمع بين الناحية الفنية التى يلجأ إليها المؤرخ حين يحلل الأدب ويتبين خواصه الجميلة أو غيرها وبين الناحية العلمية التى تعنى بالتعليل والموازنات . واستنباط الأحكام . ولذلك سموا الأول أدبا إنشائيا أو دبا بالمعنى الخاص . وسموا الثانى أدبا وصفيا أو أدبا بالمعنى العام .

الثانية : أن النقد الأدبى كما رأيت جزء من تاريخ الادب . أو

هو أداته الرئيسية فعليه يعتمد المؤرخ قبل كل شيء مادام يتعمق في درس الأدب وتحليله . وبيان خواصه التي يتخذها دارس التاريخ موضوعاً لعمله الوصفى الشارح . ثم يلجأ إلى المؤثرات الشخصية أو الجغرافية . أو السياسية أو الدينية التي أكتسبت الأدب ميزاته الخاصة .

الثالثة : أن علم البلاغة نافع للأديب . والناقد . والمؤرخ . ولكل كاتب . أو متكلم . أو خطيب . أو مدرس . فانه ينير السبيل أمام هؤلاء جميعاً . ويمينهم على أن تكون آثارهم اللغوية مفيدة . مؤثرة ممتعة . تغذى العقل والشعور والأذواق .

وهناك علوم أدبية أخرى لابد للأديب من الإلمام بها إلماماً كافياً ليقى نفسه شر الأخطاء في التعبير : اللغة . والصرف . والنحو . والعروض . ويريد باللغة شيئين . متنها . وفقها . فمن اللغة كلماتها . وأمثالها وحكمها . وعباراتها الاصطلاحية . ولتلك معاجها ومراجعها . ولسنا ندعو إلى حفظ ذلك واستيعابه فهو عسير أو مستحيل على أن تحصيله من قراءة النصوص أنفع لبيان المواقع المناسبة لاستعمال الكلمات والحكم والأمثال ولتفهم معانيها الواضحة الدقيقة مما يحيط بها من العبارات والمناسبات . وفقه اللغة تاريخها وفلسفتها . ومن النافع للأديب أن يعرف كيف نشأت اللغة وانفصلت عن أصلها القديم . وتكونت بيئتها الخاصة وكيف تأثرت بغيرها وانتقلت عبارتها من الاستعمال الحقيقي إلى المجازي وما هي وسائل إكثارها وضعا أو تعريفاً أو توليداً أو نحتاً فذلك أليق به وأنفع له وبخاصة إذا كان مؤرخاً أو ناقداً . والصرف يفيد في التصرف في الكلمات تبعاً للمعاني المتباينة كما يقى الأديب الخروج عن الأصول المرعية حين التصرف والتصريف

بالجمع والتصغير والنسب والاببدال والتوكيد وبناء المشتقات . وأما النحو فمهمته تصحيح التراكيب والعبارات متخذاً المعاني الجزئية مقياسه لذلك ويظهر أثره الواضح في حسن التأليف وسلاسة العبارة والحرص على دقة المعنى ووضوحه فالنحو لا يقف عند حركات الاعراب بل يشمل موسيقا العبارات ومنطق المعاني . والاذن تتأذى من الأخطاء النحوية كما يتأذى العقل من التعقيد اللفظي والمعنوي جميعاً . والعروض للناظم هو مقياسه الموسيقي والخطأ العروضي كالخطأ النحوي فهذه التفعيلة التي تتكرر في الشطر تحفظ وحدته الوزنية ثم تحفظ وحدة البيت حين تتكرر في سطره الثاني . وتكرار الوزن في كل بيت يحفظ للقصيدة وحدتها الموسيقية . كما ان وحدة القافية ضبط لهذه النغمة الأخيرة التي تنتهي بها الأبيات جميعاً . هذا هو الكثير الشائع فاذا تركناه إلى تعدد البحور والقوافي لم نعدم الموسيقا العروضية وإنما نكون قد ظفرنا منها بتنوع (١) يرفضه الذوق على الاطلاق .

هذه هي العلوم الادبيه المباشرة أجملنا القول فيها لبيان مكانة البلاغة بينها ، ولهذه الصلات التي تربطها بالادب ربطاً قوياً مباشراً لا يليق بالتأدب تجاهله . على ان الأدب والأديب لا يكتفيان بما ذكرنا هنا . بل لا بد لكاملهما من هذه الثقافة العامة التي قال عنها الأقدمون إنها الأخذ من كل فن بطرف (١) وهذه الثقافة تتناول الفلسفة والتاريخ والدين والقانون والفنون الجميلة وغيرها . إذ ان الأدب يختصرها في نصوصه . والأديب يحتاج إليها منشئاً وناقداً أو مؤرخاً كما سبق بيانه . وقد عتد ابن الأثير في صدر كتابه المثل السائر فصلاً في آلات علم البيان وأدواته يحسن الرجوع إليه لمن اراد

الفصل الثاني في تعريف البلاغة

المشهور في كتب البلاغة العربية^(١) ان البلاغة لغة تنبىء عن الوصول والانتهاء . يقال بلغ فلان مراده إذا وصل إليه . وبلغ الركب المدينة إذا انتهى إليها . واصطلاحاً . تكون وصفاً للكلام والمتكلم . فبلاغة الكلام مطابقتها لمقتضى الحال . والحال هو الأمر الداعى للمتكلم الى أن يميز كلامه بـمِيزة هي مقتضى الحال . فانكار المخاطب للمعنى حال يقضي ان تؤكد له الجملة فنقول إن محمداً ناجح . وذلك التأكيد هو مقتضى الحال . وبلاغة المتكلم ملكة يقتدر بها علي تأليف كلام يبلغ في أى معنى قصد ، والبلاغة هذه تستلزم امرين :

الأول : الاحتراز عن الخطأ في تأدية المعنى المقصود خوفاً من أن يؤدي بلفظ غير مطابق لمقتضى الحال فلا يكون بليفاً .

الثانى : تمييز الكلام الفصيح من غيره حتى تضمن سلامة العبارة من الخطأ والتعقيد ، فمست الحاجة الى علمين لتحقيق سلامة اللفظ من ناحية ، وللملاءمة لمقتضى الحال من ناحية اخرى ، الأول علم البيان والثانى علم المعاني ، وقد يسميان بعلم البلاغة لذلك ، ولما كان علم البديع يعرف به وجوه تحسين الكلام جعل تابعا لهذين العلمين ، فصارت مباحث البلاغة منحصرة في هذه العلوم الثلاثة : المعاني ، والبيان ، والبديع .

(١) راجع حسن الصفيح تأليف البيانى .

اما هذا التعريف فلا اعتراض لما عليه في جملة ، إذ كانت البلاغة في أصح واحد معانيها لا تخرج عما اورده هؤلاء الأقدمون من الناحية النظرية الاجالية . يقول الأستاذ Genung : «البلاغة فن تطبيق الكلام المناسب للموضوع وللحالة على حاجة القارئ او السامع ، فتجد ان الحدود واحدة في جوهرها وإن لوحظ في الأخير هذه الناحية الفنية في صراحة واضحة . ولكن المسألة هي : كيف فهم علماء البلاغة عندنا معنى المطابقة ؟ وما الوسائل التي اعتمدوا عليها في دروس البلاغة لتحقيق هذه المطابقة ثانياً ؟ وما هذه العلوم البلاغية ثالثاً ؟

إذا وقفنا عند هذه المسائل التي انتهت إليها أبحاثهم رأيناهم يذكرون أن خطاب الذكي يخالف خطاب الغبي ، وخطاب المنكر غير خطاب المتردد . وعلى هذا الأساس غالباً تقوم المطابقة لتغذية قوة الإدراك . ووسيلة ذلك التصرف في الجملة وعناصرها ، خبراً وإنشاء ، فصلاً ووصلاً ، تعريفاً وتنكيراً ، ذكراً وحذفاً ، ثم الاختلاف بين التشبيه والمجاز والكتابة مما لا يتجاوز كله دراسة الجملة والصورة دراسة قاصرة ، ومعنى ذلك امور ثلاثة : —

(١) — غاية البلاغة فيما يبدو من هذه الدراسة العلمية يغلب عليها (الانتباه الى القوة الفكرية وإقناع العقل إقناعاً جزئياً قائماً على ذكائه او بلادته وعلى شكه او إنكاره .

(٢) ووسيلة ذلك الصورة — التي تختصر علم البيان وقسماً من البديع — والجملة الخبرية والانشائية . وقد درستنا من بعض النواحي لا غير .

(٣) وعلم المعاني هو الكفيل بدراسة الجملة عندهم . كما ان البيان يدرس

للمصورة تشبيهاً ومجازاً وكناية . وأما البديع فقد عدوه شيئاً ثانوياً لا يدخل له في صميم البلاغة لأنه قائم على دراسة طرق التحسين الذى يلحق بالكلام . كالسجع والجناس والمقابلة واسلوب الحكيم والتقسيم وما إلى ذلك مما يعرف بالمحسنات اللفظية والمعنوية .

أما عن غاية البلاغة . فليس المراد من الكلام وفقاً على تغذية الفكر وحده فهناك قوى نفسية أخرى تعنى البلاغة بها لتغذيها وتهذبها . من ذلك قوة الاتفعال وقوة الإرادة . ولا نقول ان الأدب العربى قصر فى ذلك . وإنما نقول ان الدراسة النظرية فيما انتهت إليه هي التى ضاقت عن العناية بهذه المواهب النفسية كما يتضح ذلك مما يلي .

وأما عن الوسيلة فلم تكن اللغة العربية محصورة فى الصورة والجملة وحدها . فهناك الكلمة والعبارة والأسلوب عامة ، وهناك هذه الفنون الأدبية المختلفة شمرّاً وثرّاً كالخطابة ، والرسالة ، والوصف ، والجدل ، وغيرها مما أهمته هذه الدراسة - او العلوم - البلاغية فى اللغة العربية حسبما انتهى إليه وضعها الأخير

لنفهم المطابقة لمقتضى الحال فهما عميقاً شاملاً يجب ان نقيمه - من حيث الغاية والوسيلة - على طبيعة النفس الانسانية ومواهبها من ناحية ، وعلى الأدب : اسلوبه وفنونه المختلفة من ناحية أخرى .

علم النفس ينفعنا هنا ، ويتعاون مع النقد الأدبى والبلاغة فى تفسير مطابقة الكلام لمقتضى الحال . وفى بيان موضوع الدراسة البلاغية بياناً مفصلاً منظماً . فكيف نوضح ذلك ؟ (١)

(١) هناك اولا قوة الادراك The power of intellect تلك

القوة بها يعرف الانسان ويفكر ويطل ويستنبط . وهذه القوة تحتاج في ثقافتها والتأثير فيها الى الحقائق الصحيحة المعقولة المؤيدة بالبراهين الصادقة ومعنى المطابقة بالنسبة لهذه القوة تمسكين القراء والسامعين من إدراك المعارف وفهمها والاقتران بها وهي القوة التي تغلبت على رجال العلم ، والفلسفة والسياسة . ويشدد سلطانها ايام الاستقرار وفي البيئات الخصبة الغنية . وأما الكلام الذي يلائم هذه القوة فهو النثر العلمى او الأدب بالمعنى العام . كالتاريخ والنقد والعلوم والفلسفة . من كل ما يزود بالحقائق الحيوية النافعة .

(٢) قوة الانفعال (العاطفة) The power of emotion وبها

يشعر الانسان ويتخيل . وهي الظاهرة التي تتحكم كثيرا في حياة الشبان والفنيين والنساء وتوقظها البيئات الجميلة والمواقف العنيفة والحوادث القوية وايام الثورات ، والكلام الذي يتجه الى العاطفة يجب الا يقف عند افهام الحقائق بل لا بد من إيقاظ الشعور وبعث الخيال وذلك هو الشعر والنثر الأدبي المناز كالقطع الوصفية . والرسائل الشاكية أو الغزلية . والمقصص القيمة . والروايات المؤثرة . مما يسود فيه عنصر العاطفة .

(٣) ثالثا قوة الارادة The power of will وهي القوة العملية

التي يعتمد عليها الانسان في تنفيذ ما يعتقد . وفي الاتصال العملى بالحياة والكلام الذي يلائم هذه القوة يجب أن يجمع بين امرين : الافهام والتأثير . عن طريق الادراك والوجدان . وبذلك يدفع الانسان الى العمل ويؤثر في سلوكه وأخلاقه . وهي كما تعلم موهبة الجند . القواد ،

ورجال المخاطر ، وذوي المذاهب والآراء الحديثة ، وأكثر ما تلزم أيام
الحزن والانقلاب . والخطابة هي للفن الكلامي الذي يعد أنسب الفنون
لقوة الإرادة ، ولذلك تعد فناً عملياً ، وهي تجمع بين قوتي الاقتناع والتأثير
الذين يدفعان الإرادة إلى العمل الحاسم .

وهذا نرى أن معنى المطابقة البلاغية قد اتسع فتناول مظاهر النفس
الإنسانية ومواهبها المختلفة ، كما اشتمل على الفنون الأدبية جميعاً . ولاحظ
فوق ذلك الزمان ، والمكان ، والنوع الذي نتحدث إليه ، وإذا تقدمنا
قليلاً فلاحظنا الفرد ومواهبه الخاصة ، والأساليب وعناصرها التفصيلية ،
 وأنواعها المتعددة تراءى لنا هذا المدى الواسع الذي تنبسط فيه الناحية
التطبيقية لفن البلاغة . وأدر كنا إدراكاً صحيحاً ما قيل من أن المتكلم مع
المخاطب كالطبيب مع المريض يجب أن يفحصه فحصاً دقيقاً وأن يفرض له
من الدواء — أو الكلام — ما يلائمه وإلا أضربه . ونقول إن البليغ
مع المخاطبين كالقائد أمام الحصن يجب أن يهاجمه من حيث ينتظر الظفر ،
وبالسلح الذي به يفوز .

وإنما لهذه المسألة نقول . من المقرر الثابت في علم النفس أن هذه
القوى المعنوية ليست منفصلة إحداها عن الباقي في الطبيعة النفسية ، بل هي
خاضعة لنظرية الوحدة الروحية . فهي مظاهر تتوارد على نفس الإنسان
حسب الدواعي والمؤثرات . فالإنسان مرة مفكر بنفسه . وأخرى منفعل
بها ، وثالثة مرید مع تزم والنفس هي هي ، إلا أنها تلبس لكل حال ثوباً
يناسبها . وهي مع ذلك متواصلة متعاونة فالكريشدة أزر العاطفة . وهي
توقظه ، وهما يبعثان الإرادة . ويندر أن توجد فكرة لا تثير عاطفة ولا

تحرك إرادة. ومثل ذلك يقال عن الفنون الأدبية التي تغذى هذه المواهب النفسية.

(١) فليست هذه الفنون متضادة بحيث لا يلتقى فن بالآخر ولا

يصل اليه بسبب. كلا ، فكل فن منها يتصل بالباقي أشد اتصال ، إذ

تألف من عناصر واحدة هي اللفظ والمعنى الذي ينحل إلى العاطفة والخيال

والفكرة ، وإن كانت تتفاوت في مقدار ما يحويه كل منها من هذه العناصر

تفاوتا يقوم على طبيعتها ونياتها . على أنها جميعا تصدر عن الإنسان وترى إلى

تهذيبه كذلك . وقد رأيت أنها جميعا تندرج تحت هذا المعنى العام لكلمة الأدب .

(٢) كذلك لا تتعارض هذه الفنون من حيث صلتها بقوى النفس

الإنسانية . فالخطابة مثلا تغذي الفكر والعاطفة وإن كانت تتجه إلى الإرادة

اتجاهها أساسيا مقصودا لذاته ، فهي تستخدم هاتين القوتين لتنفيذ خلاصتها

إلى الإرادة لتبعثها وتحمل صاحبها على العمل . كذلك الشعر يؤثر في الفكر

والإرادة مباشرة وغير مباشرة ، لما فيه من الحقائق والعواطف ، وبخاصة

إذا كان شعرا خطائيا تهذيبيا . والنثر العامي يتجه بعقائمه مباشرة إلى الفكر .

ولكن الحقائق عماد العاطفة وسبب قوتها وصدقها . وهي كذلك أساس

العقيدة التي تتكى عليها الإرادة . ونتيجة ذلك أن أى هذه الفنون يؤثر في

قوى النفس جميعا وإن تفاوتت الآثار بتغاير الفنون ، فهي متعاونة متواصلة

شأن القوى النفسية ذاتها .

(٣) ويقال نحو ذلك بالنسبة لطبقات الناس وبيئاتهم ، فكما أن هذه

الطبقات الإنسانية — مهما تختلف مواهبها في الدرجة — ذات وحدة روحية

أو نفسية عامة . وبينها قدر مشترك منها مما تتباين بها الأزمنة والأمكنة ،

كذلك الفنون الأدبية ، يجد كل نوع بل كل فرد في أيها ناحية تغذى

نفسه وتؤثر فيه ، فالناس جميعا لهم عقول ، وعواطف ، وعزائم ، والفنون فيها ما يفيد المرأة ويشير الرجل ، وفيها ما ينفع الشاب ويهيج الفيلسوف ، وفيها ما يشجى الجندي ، ويستفز الحليم ، إذ كان الأدب صادراً عن الإنسان ومتجهاً الى الإنسان .

(٤) وسنرى في غضون هذه الرسالة أن صفة القوة ألزم للأسلوب الخطابي ، والوضوح أظهر في الأسلوب العلمي . والجمال أخص صفات الأسلوب الأدبي . فليس معنى ذلك أن الخطابة تستغنى عن الوضوح أو الجمال وإلا فلن تفهم وإن احتملها الناس ، فتفقد إقناعها وتأثيرها . وبذلك لا تتحقق غايتها العملية . ولا يمكن أن ينكر الأسلوب العلمي القوة والجمال ، فرارا من الثقل والجفاء فلا يقبل عليه القراء ولا يفيدون منه شيئاً . ولن يكتفى الشعر مثلاً بجمال الأسلوب دون الوضوح والقوة . وإلا فقد ميزته الأدبية التي هي أداء المعاني العقلية . وميزته الفنية الهامة التي هي إثارة العواطف في نفوس القراء . فلا بد إذاً من توافر هذه الصفات في كل أسلوب وإن كان يجبهك منها أوضحها في الفن الذي تدرسه .

(٥) وخلاصة هذا الفصل أن هناك وحدتين : وحدة نفسية ووحدة أدبية . والأولى تنوافر في طبيعة النفس الإنسانية وتترأى لنا مظاهر شتى تتعاقب عليها فكراً أو عاطفة أو إرادة . وأى قوة في إحداها تفيد سائرهما مادام الإنسان حريصاً على حفظ التوازن بينها . والثانية تظهر في طبيعة الكلام وصدوره عن نفس البليغ واشتماله على تلك العناصر الأدبية التي هي في الأصل عناصر نفسية صالحة لتثقيف الإنسان وتهذيبه من أى طبقة كان ، وفي أى بيئة من المكان والزمان .

الفصل الثالث في علوم البلاغة

رأينا في الفصل الأول أن البلاغة ، في ناحيتها النظرية ، علم من العلوم الأدبية ، وهنا نذكر أنها في حاجة إلى علوم أخرى تعد وسائل لها ، ويجب أن يقوم كل منها بواجب أولى في الإنشاء البليغ . ثم يقوم الفن البلاغي بعد ذلك ليتم ما عليه من حسن التعبير ومطابقته لمقتضى الحال . وأهم هذه العلوم البلاغية اثنان : هما النحو والمنطق .

(١) فالنحو — ومنه الصرف — يرشدنا إلى بناء الكلمات اللغوية وتصريفها وبيان علاقاتها معاً في الجمل والعبارات . ثم يعيننا كذلك في تكوين التراكيب الصحيحة . والفريق المترابطة الأجزاء . وبذلك تنتهى مهمته مادام قد حقق لنا صحة العبارة في ذاتها بصرف النظر عن صلتها بالقراء أو السامعين . وعلى الفن البلاغي بعد ذلك أن يتصرف في العبارة مع بقاء صحتها — تصرفاً يجعلها سلسلة . قوية التأثير . بعيدة عن التنافر سهلة قريبة الفهم . فقد تكون العبارة صحيحة التكوين النحوى ولكنها مع ذلك سقيمة التراكيب صعبة الفهم . لا ترضى الذوق . وإذا فلا يمكن أن تسمى بليغة — لأن البلاغة تستلزم أمرين : هذا الصواب النحوى الذى أشرنا إليه . ثم الجمال والملاءمة لأذواق المخاطبين وعقولهم — من أمثلة ذلك قول المتنبي : —

وشيخ في الشباب وليس شيخاً يسمى كل من باغ المشيبا
لكثرة الاضطراب في تكوين العبارة حتى صارت بطيئة الفهم .

وترتيبها الطبيعي هكذا : « هو شيخ في الشباب . وليس كل من بلغ المشيب يسمى شيخاً » فهذه الصيغة النحوية . والمطابقة لقواعد الاعراب لا تكفي لتحقيق البلاغة مادام التقديم والتأخير قد مرّق أوصل العبارة كما رأيت . وكذلك قول ابن المقفع : « ليعلم إخوانك والعامّة أنك إن استطعت أن تكون إلي أن تفعل مالا تقول أقرب منك إلي أن تقول مالا تفعل فعلت . » وهذا الذي ذكرناه هنا هو ما ألم به الأستاذ عبد القاهر الجرجاني في معرض القول في نظم الكلام وتأليفه حيث يقول : (١) « فإن قلت : أفليس هو كلاماً قد اطرّد على الصواب : وسلم من العيب ؟ أمّا يكون في كثرة الصواب فضيلة ؟ قيل : أمّا والصواب كما ترى فلا . لأننا لسنا في ذكر تقويم اللسان . والتحرز من اللحن . وزين الاعراب فنعتد بعمل هذا الصواب وإنما نحن في أمور تدرك بالفكر اللطيفة . ودقائق يوصل إليها بنائب القلم فليس درك صواب دركاً فيما نحن فيه حتى يشرف . وموضع . ويصعب الوصول إليه . وكذلك لا يكون ترك خطأ تركاً حتى يحتاج في التحفظ إلى لطف نظر وفضل روية . وقوة ذهن . وشدة تيقظ . وهذا باب ينبغي أن تراعيه . وأن تعني به . حتى إذا وازنت بين كلام وكلام دريت كيف تصنع . فضمت إلى كل شكل شكله . وقابلته بما هو نظير له . وميزت ما الصنعة منه في لفظه مما هي منه في نظمه — ثم ذكر مثالا لحسن التأليف قول الشاعر : —

سألت عليه شعاب الحى حين دعا أنصاره بوجوه كالدنانير

(١) ص ٧٧ دلائل الإعجاز . ويلاحظ أن نظم الكلام يقابل الأسلوب ولكننا آثرنا

التمانية لحقتها وشيوعها .

فانك ترى هذه الأستعارة على لفظها و غرابتها . إنما تم لها هذا الحُسن وانتهى إلى حيث انتهى . بما توخى في وضع الكلام من التقديم والتأخير . وتجدها قد ملحت واطفت بمعاونة ذلك . وموازرتة لها . وإن شككت فاعمد الى الجارين والظرف . فأزل كلامها عن مكانه الذى وضعه الشاعر فيه فقل : سألت شعاب الحى بوجوه كالدنانير عليه حين دعا أنصاره . ثم انظر كيف يكون الحال وكيف يذهب الحسن والحلاوة وكيف تعدم اريحيتك التى كانت وكيف تذهب النشوة التى كنت تجدها .

(٢) وأما المنطق فانه يمامنا طرق التفكير الصحيح . ويشرح لنا خواص الفكرة الصحيحة فى ذاتها . لا يعنيه بعد ذلك أكانت مفهومة للناس أم لا . استطاعوا أن يدركوا الفكرة واضحة قوية رائعة أم سطحية فاترة فعلى البلاغة بعد تسلم هذه الأفكار الصحيحة أن تقوم بجهد فنى خطير قتبسط الأفكار وتحسن ترتيبها وعرضها وأداءها بعبارة واضحة جميلة . وتلائم بينها وبين من كتبت لهم . وبذلك تنحقق البلاغة من هذه الجهة المعنوية أيضاً . وهنا نقول كما قلنا قبلاً : إن الأفكار قد تكون صحيحة فى ذاتها . مسامة المقدمات والبراهين . وهى مع ذلك أبعد ما تكون عن البلاغة وحسن البيان لأنها ليست فى مستوى القراء . غريبة عن يئشها الزمانية أو المكانية . تعوزها الروعة والقوة أو العبارة المناسبة لها . ومن هنا عيب التحدث الى العامة بأفكار الخاصة كما أن عكس ذلك صحيح . مهمة البلاغة اذاً الحرص على صحة الأفكار والمعلومات . ثم عرضها عرضاً واضحاً قوياً ملائماً للمخاطبين ومن كلام بشر بن المعتمر^(١) « ومن أراد

معنى كريما فليتمس له لفظا كريما . فان حق المعنى الشريف اللفظ الشريف
ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما أو يهجنهما . وعما تعود من أجله
أن تكون أسوأ حالا منك قبل أن تلمس اظهارهما وترهن نفسك
بملاستهما . وقضاء حقهما . وكن في ثلاث منازل . فان أولى الثلاث أن
يكون لفظك رشيقا عذبا . ونحماً سهلاً ، ويكون معنك ظاهراً مكشوفاً
وقريبا معروفا . إما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت وإما عند العامة
إن كنت للعامة أردت . والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معانى الخاصة
وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معانى العامة . وانما مدار الشرف على
الصواب واحراز المنفعة . مع موافقة الحال . وما يجب لكل مقام من المقال
وكذلك اللفظ العامى والخاصى فان أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك وبلاغة
قلمك ولطف مداخلك واقتدارك على نفسك على أن تفهم العامة معانى
الخاصة وتكسوها الألفاظ الواسطة التى لا تلتطف عن الدهماء ولا تهفو
عن الأكفاء فأنت البليغ التام .

وخلاصة هذا الفصل أن هناك مسألتين يجب ان تتوافرا فى الكلام
البليغ هما الصحة والمناسبة . فالأولى من وحي المنطق والنحو والثانية هى
الميزة التى يختص بها الفن البلاغى الجميل .

الفصل الرابع

البلاغة بين العلم والفن

حينما يدرس الطالب قواعد البلاغة ومسائله دراسة نظرية منظمة . يقال : إنه يدرس علم البلاغة . كما يدرس مواضع الفصل والوصل ، وقوانين التشبيه والمجاز ، وأصول الخطابة والرواية والوصف . فإذا ما أخذ يطبق هذه القواعد تطبيقاً عملياً بإنشاء الكلام البليغ ، قيل : إنه يعالج فن البلاغة . كأن يرتجل الخطابة ، أو يكتب القصة ، ويبدع الوصف . فالعلم هو المعارف الإنسانية في أسلوب منسق ، والفن هو هذه المعارف في شكل عملي تطبيقي . والفن نوعان : نافع كالصناعات التي يكون عمل الجسم فيها أظهر من عمل الذوق . وفن جميل . وفيه يكون أثر الذوق ومظهره أشد من أثر الجسم ، كالموسيقى والأدب والرسم والتصوير . فهذه كلها لغات حسية جميلة تعبر عن عاطفة الإنسان وشخصيته الفنية تعبيراً جميلاً بوسائلها المختلفة . كألحان الموسيقى . وعبارات ، الأدب . وألوان الرسم . وأدوات التصوير وهو عمل الصور — أي التماثيل — وهناك كلام كثير في الفروق بين العلم والفن ليس هنا موضع الخوض فيه ^(١) وإنما نذكر في هذا الفصل صلة البلاغة بكل من العلم والفن مع الإشارة إلى فوائدها في كل ناحية من هذه النواحي متوخين الإيجاز ما دام كافياً .

(١) وقد أسبقنا القول في أن البلاغة علم أدبي . وكنا نلاحظ هناك نسبتها إلى الأدب بمعناه الخاص غالباً . أي هذه النصوص الممتازة من الشعر

(١) راجع صحيفة دار العلوم عدد ٢ من السنة الثالثة ص ٣٥ للمؤلف

والنثر ، وقرّناها بالنقد الأدبي . فكلاهما نافع في إرشاد الكتاب والشعراء
إلى خير المثل التي تهب لآثارهم الفنية خاصتي الافادة والتأثير . ونستطيع
هنا أن ننسبها إلى الأدب بمعناه العام فتدخل دائرة العلوم التي تبحث في
علاقة الإنسان بالزمان والمكان . وعلاقة أفرادهم وجماعاته بعضهم ببعض
كالتاريخ . والجغرافيا . والقانون . والاجتماع . والاخلاق (١)

وليس من شك في أن البلاغة تبحث في هذه الصلات وتقيم عليها
مسائلها الرئيسية وهي كيفية مطابقة الكلام لمقتضى الحال كما اتضح ذلك
في الفصل الثاني من هذه المقدمات . فأصول الخطابة قائمة على العلاقة بين
الخطيب والسامعين . وبينه وبين البيئة الزمانية والسياسية والاجتماعية التي
نعيش فيها . وكذلك الكاتب والشاعر والراوي وكل صاحب قلم أو لسان .
ولكن ما فائدة هذه الدراسة النظرية ؟ ألا يستطيع الإنسان أن يكون
بليغاً دون أن يدرس قواعد البلاغة ؟

مثل ذلك قيل لعلماء المنطق لما وضعوا للناس طرق التفكير الصحيح
وليس من ينكر على بعض الناس صحة التفكير وحسن التعبير دون الرجوع
إلى قواعد المنطق وعلم البلاغة وقد أجاب المناطقة بأن علمهم من أهم الوسائل
للتربية العقلية والمرانة على طرق البحث العلمي الصحيح على أن الإنسان
يمكنه الاستغناء عن المنطق مادام تفكيره صواباً ولكن من يستطيع أن
يضمن لنفسه أو لغيره اطراد الصواب وعدم التورط في الأخطاء
ولا سيما في المسائل الملتوية العويصة ؟ ومثل ذلك يقال عن النحو والعروض
وعلم الصحة .

ولما وُجِّهَ هذا السؤال الى رجال البلاغة . قالوا : إننا نعترف بأن هناك من ذوى المواهب اليبانية . والاستعداد الفطرى لانشاء الأدب الجميل . ولكن هؤلاء أنفسهم معرضون للوقوع فى أخطاء شتى حين يتناولون فنون الخطابة والرواية والقصة ، إذ لا يعقل أن يستوعب الإنسان بفطرته تجارب العلماء والفنيين والنقاد . فهذه الدراسة العلمية تختصر الوقت وتوفر عليه كثيراً من التجارب الواسعة ، وهى ضمان يقى الأديب الزينغ الذى لم ينتبه له . ويهديه إلى أقوم الطرق اليبانية ، ويرسم له المثل الصالحة للأداء . فيفيدون من ذلك أجل الفوائد وأغزرها ويضيفون الى عمرهم الأدبى أعمار السابقين من العلماء والأدباء ، أما غير الموهوبين فلن يأسوا لأن هذه الدراسة النظرية تصقل مواهبهم الأولية فتعلمهم طرق القراءة والفهم والنقد وتظهرهم على نواح فى الأدب مستورة وتجعل قراءتهم عميقة نافعة . هذا من الناحية الأولى ومن جهة ثانية يكتسبون ذوقاً مهنياً يجعل أحاديثهم وأحكامهم وكتاباتهم أقرب الى المعقول . وأوفق للذوق الجميل . ومن هنا نجد مسائل البلاغة شديدة الصلة بأصول النقد الأدبى من حيث الارشاد والافادة حتى تسمى أحياناً البلاغة النقدية Critical rhetoric

ب -- وإذا ذكر الفن العملى أو النافع فلا تعدم البلاغة ما يصل بينها وبينه ويبدو ذلك فى ناحيتين : —

الأولى من حيث طبيعتها ، فالبلاغة تحوى هذه الناحية التطبيقية التى تبدو واضحة فى الملاءمة بين الكلام وبين حاجة القارئ أو السامع فى هذه الأحوال المتباينة . فالخطابة لها موافقها ورجالها وألبياءها والكتابة تحسن حيث لا يحسن الشعر ، والحوار يوجد حين لا تنفع المحاضرة بشيء ،

حتى حركات الخطيب والممثل كثيراً ما تكون جزءاً من التعبير البلاغى .
الثانية من حيث غايتها ، فإذا كانت غاية الصناعات النفع المادى
وكسب المال فذلك يمكن توافره فى الفن البلاغى ، كما فى الصحافة العادية ،
والتقارير الاقتصادية . وللاكتب العلمية التى ترمى الى غاية نفعية مادية
كالزراعية والصناعية . وناحية أخرى حين يتخذ الأدب نفسه وسيلة
استجداء وكسب ، وفى ذلك زراية به ، ونقل له من ميدان الفن الجميل الى
دائرة الحرف والصناعات .

ج — والبلاغة بعد ذلك أشد ما تكون صلة بالفن الجميل ، لأنها فى
الحقيقة أحد هذه الفنون كالرسم ، والتصوير ، والموسيقا ، والنقش ، وستطيع
هنا أن نذكر بعض نقط المشابهة بين البلاغة وبين سائر هذه الفنون . (١)
(١) القدرة على التعبير الجميل هبة طبيعية ، كحاسة السمع للموسيقا ،
والبصر للألوان والتناسب بينها . وهذه القدرة متفاوتة الدرجات بين الناس
وفى الأحوال المختلفة ، فقد تكون مرهفة يقضى تدرك سر الفصاحة ،
ومواطن الجمال بداهة كما تحسن ارتجال القول المؤثر الجميل ، وقد تكون
فائرة هادئة ، فهمى محتاجة الى ما يوقظها ويشحذها من قراءة عميقة او استماع
الى نصوص جميلة ، ولكنها على أية حال كافية للانشاء العادى والكتابة
العلمية الواضحة . وهذه الموهبة الطبيعية هي السر الأول فى النبوغ البيانى
والبقرية الأدبية ، وقد أسبقنا أن ذوى الملكات الفنية أقدر الناس على
الابتكار ، وأصدقهم حـ كما على الآثار الكتابية ، وأكثرهم انتفاعا
بالدراسات النظرية .

(٢) طالب البلاغة كغيره من طلاب الفنون الأخرى ، لا يكتفي بهذه الموهبة الطبيعية بل يحاول دائماً صقلها ، وتهذيبها ، وترقيتها لتقوى ، ويتردد نموها لتجاوز الدرجة الوسطى إلى مستوى النبوغ والابتكار . وهنا نرى طرافة الأساليب وجدتها ، وفرضها على الأدب والأدباء . فعل ذلك الجاحظ قديماً ، ويحاوله كثير من المعاصرين والمحدثين . ولولا ذلك لعاش الناس في درجة ابتدائية ووقفت حركة التجديد .

(٣) الأسلوب البلاغى — كالأسلوب الموسيقى والتصويرى معرض لأخطاء يقع فيها الطالب ويجب التنبيه لها . والحرص منها باخلاص شديد . منها التهاون الذى يدفع بالأديب إلى التعابير المحفوظة والتراكيب المتبذلة دون التفكير فى معانيها ومقدار ملاءمتها للغرض المقصود . وهذا هو التقليد الأعمى والكسل الضار . ومنها الثقة العمياء بالنفس والاعتداد بالمهارة الشخصية وعدم الصبر على المراجعة اللازمة لتقويم الأساليب . وهذا العيب يظهر عند من تسرل عليهم الكتابة وتكون طبائعهم فياضة ، فيظنون — خطأ — أن استعدادهم كفى بالنجاح . ومنها الشغف بالمحسنات البديعة وتكلف الاغراب والمبالغة ومعنى هذا أن الكاتب يعنى بالثوب الذى يلبسه المعنى أكثر من عنايته بالمعنى ذاته . فيصبح الأدب أشبه بالحرف اليدوية يعمل لذات الألفاظ . مع أن الفن البلاغى لم يوجد إلا لنشر الأفكار وخدمة المعانى التى يجب أن تستقر فى نفوس الآخرين . وقد وجد فى تاريخ الأدب العربى جماعة من الكتاب جعلوا همهم الصناعة اللفظية ، وغلبوا جانب الألفاظ على ناحية المعانى والموضوعات ، ستجد أمثلة منهم فيما يرد عليك فى دراسة الأساليب .

(٤) هناك فكرة شائعة بين الفنانين كثيراً ما يتشبث بها طلاب البلاغة ، هي أن تقييد الفن ورجاله بالقوانين الموضوعية يطفى على حرية الطالب ويحد من كفايته ، وقد يكبت نبوغه المرجو . على أن هذه الأساليب التي تتراءى أول ظهورها شاذة غريبة كثيراً ما تصبح بعد حين مألوقة مقررّة أو مستحبة متبعة . فإذا خرجنا البلاغة على هذه النظرية ألغينا جهود السابقين وعرضنا الناشئ لتجارب خطيرة قد تضره . وخير للطلاب أن ينتفع بآثار السابقين لتسكون له نقطة ابتداء وإرشاد . وله بعد ذلك أن يتذكر ما شاء في ظل هذه الآثار وعلى هدى من أصول البلاغة حتى لا يصاب بالشطط . وعلى هذا الأساس نجد المعاهد العلمية تأخذ الطالب بدراسة الأدب القديم والحديث معاً لعلها تعرض عليه بذلك ما يختار منه خير مساعد له على الافادة والنبوغ .

(٥) وإذا لاحظنا النصوص البيانية من ناحية عناصرها التي المنما بها في الفصل الأول ومن ناحية غايتها التي هي غاية الأدب التعليمية والتثقيبية ومن ناحية صلتها بالموسيقى الأدبية .. رأينا البلاغة تسيطر على ميزات الفنون الجميلة الأخرى وتتمازج بهذا الافصاح الواضح .



الفصل الخامس موضوع علم البلاغة

رأينا أن البلاغة العربية انتهت في أبحاثها إلى علمين أساسيين : المعاني والبيان ، وجملت البديع ملحقا بهما . كما لاحظنا أن مباحث هذه العلوم لا تخرج في مجلتها عن دراسة الجملة والصورة لتغذية قوة الإدراك النفسية ، وسنرى هنا ، كما بينا من قبل ، أن موضوع البلاغة أعم من ذلك وأشمل وأنه لا حاجة بنا مطلقا إلى هذه الأسماء العلمية — كالمعاني والبيان والبديع — التي تطلق على نقط جزئية لا تستوجب هذه العنوانات .

يعرف موضوع البلاغة بالرجوع إلى أهم خواصها وهي مطابقة الكلام لمقتضى الحال ^(١) ، فأبحاث علم البلاغة تدور حول هذه المسألة وبيان ما يناسب وما لا يناسب ، لأن ما يحسن في خطاب جماعة أو في حال ما . قد لا يحسن مع جماعة أو في حال أخرى . وما قد يصلح لغرض علمي من الأساليب لا يصلح لغرض أدبي ، فالمسألة هي بيان الأنسب ، لذلك يعترضنا دائما هذان السؤالان : ماذا نقول ؟ وكيف نقول ؟

والاجابة عن السؤال الأول تتناول القواعد الخاصة بمادة الكلام البليغ من حيث موضوعاته ، وفكره ، وعواطفه ، وأخيلته . كما أن الاجابة عن السؤال الثاني تقوم على طريقة التعبير عن هذه المادة وأدائها .

ويجب أن نلاحظ أن قوانين التعبير تشمل المادة أو تمسها ، إذ كانت المادة مقياس العبارة وسبب تنوعها فالأسلوب يختلف خطابه عنه رسالة ،

والعبارة الاستفهامية تخالف الإخبارية ، وكذلك دراسة المادة لا تخلو من القول في التعبير ، فالمادة لا تدرس على أنها شيء منفصل مستقل ، وإنما يراعى أنسبها ، وصلته باللغة التي تؤديه تقريراً كانت أو حواراً ، ومن الناحية النقدية لا أستطيع وصف الكلام بالوضوح أو الجمل ، إلا إذا نظرت إلى مدانيه فهي مبنية على هذه الأوصاف كما يمر بك في الكلام على صفات الأسلوب . ومعنى هذا أن ناحيتي الدراسة البلاغية تلتقيان كما رأيت . وقد تفرقان افتراقاً جزئياً حين تتأخر إلى الوراء لننظر في مسألة الصحة وحدها ، أي حين نبحث في صواب الفكرة في ذاتها ، أو في سلامة التراكيب نحويًا لكن الدرس البلاغي لا يري فصلهما بحال .

ومهما يكن من الأمر فإن الدراسة العلمية تبيح لنا أن نتناول كل جانب ونخصه بدراسة غالبية فيه ، وبذلك ينحصر موضوع البلاغة في باين أوكتاين : الأسلوب ، والفنون الأدبية .

(١) الأسلوب Style . وفي هذا القسم من علم البلاغة ندرس القواعد التي إذا اتبعت كان التعبير بليغاً أي واضحاً مؤثراً ، فندرس الكلمة والصورة والجملة والعبارة . والأسلوب من حيث أنواعه وعناصره وصفاته ومقوماته وموسيقاه ، وقد يجد الطالب في هذا الدرس شيئاً من التفاصيل المحتاجة إلى أناة وصبر لكنها خطيرة النتائج في فن البيان .

وفي هذا القسم نضع البلاغة العربية ، فلم المأني يدخل كله في بحث الجملة ، وعلم البيان وأغلب البديع يدخل في باب الصورة ، وتبقى المباحث الأخرى مهمة في هذه الكتب التي انتهت إليها الدراسة البلاغية . نعم إنك واجد بلا شك في كتب الأقدمين كالصناعتين . ودلائل الإعجاز .

وأسرار البلاغة ، والمثل السائر مباحث قيمة تتصل بالعبارة من الناحية الفنية العامة ولكنها غير مستوفدة ولا منظمة .

(٢) الفنون الأدبية وقد تسمى قسم الابتكار Invention وهنا ندرس مادة الكلام من حيث اختيارها وتنسيقها وتنسيقها وما يلائم كل فن من الفنون الأدبية . وقواعد هذه الفنون كالقصة والمقالة والوصف والرسالة والمناظرة والتاريخ . وليلاحظ ان الدراسة هنا شكلية كذلك فهي لا تخلق المادة للطالب ، لا تمد له الأفكار والآراء . فذلك من عمل الطالب وقراءته الخاصة وتجاربه الحيوية التي تمده بالآراء وتكشف له عن الحقائق . وعلى البلاغة أن تشير فقط الى ما يتبع في تأليف المعاني وتنظيم الفنون اقساماً لتنتج الآثار المرجوة .

وهنا أشير الى مسألة هي نتيجة لما اسلفنا ، تلك أن علم البلاغة يميل في جلته الى الناحية الشكلية او الاسلوبية فهو ان يعرض ^{لشبه} الفكرة بل للملاءمتها ولا يخلقها لكن ينسقها وهو يعنى كثيراً بالعبارات والأساليب حتى ان بعض الباحثين يطلق عليه كلمة الأسلوب . ومهما تختلف وجهات النظر فقد أصبحت البلاغة تبحث الآن في هذه الموضوعات التي ذكرنا ولن نستطيع الافلات من الاجابة عن هذين السؤالين : ماذا نقول وكيف نقول ؟ وكما لاحظنا قصور علم البلاغة عندنا في قسم الأساليب كذلك نجدنا قاصرة في قسم الفنون الأدبية إلا فقرات مفرقة او فصول درست لأغراض غير أدبية كما في آداب البحث والمناظرة .

وبالموازاة بين أبحاث البلاغة كما دونتها الكتب العربية الأخيرة . وبين موضوعها كما يجب ان يكون ، نستطيع ان نقرر النتائج الآتية : —

(١) ان نصف البلاغة النظرية مفقود في اللغة العربية أكثره في قسم الفنون الأدبية ، وباقية في باب الأسلوب . على أن ما ترجم من خطابة أرسطو وشعره إنما نقل على أنه فلسفة لا أدب ، وكانت الترجمة قاصرة فلم تفد كثيرا .

(٢) ان شطرا من الأسلوب قد درس تحت عنوان المعاني والبيان والبدیع وهو شطر على خطورته يعوزه التنسيق ، ولا حاجة بنا الآن الى هذه الاسماء التي تسمى علوما خاصة لأجل فصول بلاغية يسيرة .

(٣) ان البلاغة العربية في حاجة الى وضع علمي جديد يشمل هذه الأبواب والفنون التي اشرنا اليها ، ويصل بينها وبين الطبيعة الانسانية وملاساتها الزمانية والمكانية . حتى يخدم الأدب ، وذلك كله غير البحث التاريخي الذي يفرد له بحث خاص .

(٤) أن الأدباء هم أولي الناس بدرس البلاغة حتى يخلصوها من أساليب الفلاسفة ومذاهبهم وأعاظم فذلك هو الذي أفسد بلاغتنا وحوّلها أبحاثاً لغوية عقيمة أشبه بالرياضة والكيمياء .

ولست أدعى أني أفعل شيئا من ذلك في هذه الفصول وحسبي أمران الأول هذه الإشارة الى ما يجب ان تنهض به .

الثاني اني تناولت الأسلوب من بعض نواحيه العامة لا شيء إلا لأنه صادفني بين دروس هذه السنة .